محاضرات في منهجية وتقنيات البحث التاريخي:

1. علم التاريخ المصطلح والمفهوم:

وردت الكثير من المفاهيم اللغوية والاصطلاحية لكلمة تاريخ، فهناك من أشار إلى أنها تعريب للكلمة الفارسية ماه روز وهي تعني عد وحساب الأيام والشهور والوقت، ومنهم من ذهب على أنها ذات أصل عربية وهي مشتقة من ورخ التي تعني الشهر استنادا إلى نقوش عربية في اليمن وفي روايات أخرى جاءت بمعنى القمر ، وبمعنى تاريخه في كلمة ورَّخه، ومهما يكن من أمر فكلمتا أرخ أو ورخ لهما معان متقاربة، إلا أن كلمة أرخ هي الأشهر مثلا عندما نقول أرخت الكتاب أي وقته وحددت تاريخه، ومنها جاءت كلمة تاريخ أما استعمال كلمة توريخ فهو أقل شهرة من الأول وهو لا يكاد يذكر بالمرة إلا في معاجم اللغة والكتابات القديمة.

أما المعنى الاصطلاحي للتاريخ فقد ذكر أهل الاختصاص أنه يفيد التعريف بالوقت على ما يعم اقتصاص الحادثة مع التنصيص على الوقت الذي وقعت فيه وهو عند بعضهم معرفة أحوال الطوائف وبلدانهم ورسومهم وعاداتهم وصنائع أشخاصهم وأنسابهم ووفياتهم إلى غير ذلك .

وعرفه الكافيجي بقوله: «وأما علم التاريخ فهو علم يبحث فيه عن الزمان وأحواله وعن أحوال ما يتعلق به من حيث تعيين ذلك وتوقيته»، وهو عند السخاوي: «...الوقت الذي تضبط به الأحوال من مولد الرواة والأئمة ووفاة وصحة وعقل وبدن

ورحلة وحفظ وضبط وتوثيق وتجريح وما أشبه هذا مما مرجعه الفحص عن أحوالهم في ابتدائهم وحالهم واستقبالهم ويلتحق به ما يتفق من الحوادث والوقائع الجليلة من ظهور ملمة وتجديد فرض وخليفة ووزير وغزوة وملحمة وحرب وفتح بلد وانتزاعه من متغلب عليه وانتقال دولة وربما يتوسع فيه لبدء الخلق وقصص الأنبياء وغير ذلك من أمور الأمم الماضية...».

أما ابن خلدون فعرفه بقوله: «...إخبار عن الأيام والدول والسوابق من القرون الأول، تنمو فيها الأقوال وتضرب فيها الأمثال..وتؤدي إلينا شأن الخليقة كيف تقلبت بها الأحوال، واتسع للدول النطاق فيها والمجال وعمروا الأرض حتى نادى بهم الارتحال وحان منهم الزوال».

وفي اللغة اليونانية وردت كلمة Historia التي تفيد البحث والتقصي، ثم انتقلت إلى الرومانية ومنها اشتقت History باللغة الإنجليزية و Histoire بالفرنسية، وترجمت إلى الألمانية على هذا النحو Geschichte ، وقد وردت معاني اصطلاحية كثيرة لهذه الكلمة، فقد تشير إلى عملية التطور التاريخي ووصف تلك العملية بنشاط إنساني ثابت قام به الأفراد والجماعات والذي يتجلى في تور أية جماعة أو فرد ويؤثر عل تطورها.

2. فوائده:

لا يمكن للإنسان أن ينقطع عن ماضيه، فالصور التي حفلت بها ذاكرة الإنسان لا يمكنه نسيانها ولو أراد ذلك، سواء تعلق ذلك بالذكريات والتجارب الجيدة أو السيئة، وحري بالبشر تذكر ما مضى وإعادة روايتهم للأحداث للذين لم يشهدوها، إن المجتمعات الإنسانية في حالة حركة وانتقال وتطور وتحول من حال إلى حال، لكن هذه الحركية لا يمكن أن تتكرر وإن تشابهت في بعض الجزئيات، كما لا يمكن للأحداث أن تعود لأنها مضت بمضي أصحابها والفاعلين في تسييرها على مسرح الجغرافيا.

ذكر الحكيم الصيني كونفوشيوس أن معرفة الماضي تؤدي إلى تطوير الإنسان لذاته وفهمه لقدراته وإحساسه بكيانه وانتمائه، وهذا الخطيب الروماني ماركوس شيرون Cicero (ت 43 ق.م) يشيد بالتاريخ وفضله قائلا: «...شاهد الأزمنة ونور الحق..ومدبر الحياة..والإنسان إذا لم يحي معه حوادث من جاء قبله لا فائدة من حياته...» ، فلا حياة للإنسان بدون تاريخ فإذا أراد أن يقطع صلته بماضيه وقضى على كل ما يمت بصلة لذلك، فسيكون مصيره التردي في دركات التخلف، ومن دون شك سيقوده ذلك للتفكير بالوقوف من جديد اعتمادا على تجاربه السابقة.

قال المسعودي (ت 345هـ/957م) أن التاريخ «...علم يستمتع به العالم والجاهل ويستعذب موقعه الأحمق والعاقل...ومكارم الأخلاق ومعاليها منه تقتبس، وآداب سياسة الملوك منه تلتمس، يجمع لك الأول والآخر والناقص والوافر والبادي والحاضر والموجود والغابر وعليه مدار كثير من الأحكام، وبه يتزين في كل محفل ومقام...».

ولابن خلدون رأيه في التاريخ فهو عنده: «...جم الفوائد شريف الغاية، إذ هو يوقفنا على أحوال الماضين من الأمم في أخلاقهم والأنبياء في سيرهم والملوك في دولهم وسياستهم، حتى تتم فائدة الاقتداء في ذلك لمن يرومه في أحوال الدين والدنيا».

وذكر صاحب الخطط عن التاريخ: «...ومنفعته أن يشرف المرء في وقت قصير على ما كان من الحوادث والتغييرات في الأزمنة المتطاولة والأعوام الكثيرة، فتتهذب بتدبير ذلك نفسه وترتاض أخلاقه فيحب الخير ويفعله ويكره الشر ويجتنبه...».

وهناك من جعل فائدة التاريخ لا تقتصر على المنفعة الدنيوية، كمعرفة أيام الدول والملوك وأخبارهم وسياساتهم وصلاح الأحوال وفسادها والجور والعدوان والخراب أو العمارة والعدل والإنصاف والسلامة من عواقب الأمور واكتساب التجارب، والاستفادة من دروس الماضي خيرها وشرها، وأما الفوائد الأخروية فهي

النظر في تقلبات الزمان ونكباته وأن لا شيء يصلح أو يدوم، فيزهد الإنسان في الدنيا ويرغب عنها ويتزود للآخرة ويسلم من الأذى وسوء المنقلب وينال مرضاة الله.

إن التاريخ هو دراسة منظمة تتناول الأحداث والوقائع بهدف أخذ العبرة وتجنب الغفلة، فالطبيب لا يصف العلاج للمريض حتى تكون له معرفة بتاريخ مرضه، والساسة تواجههم مشاكل لا يجدون لها حلولا ناجعة حتى يتتبعوا أصولها وأسبابها، وسيكون من اليسير عليهم إيجاد حلول لها إستنادا إلى الماضي، والتاريخ يعلم الفرد كيف يصبح عضوا فاعلا في مجتمعه والجدوى من وجوده، وهو أصلح العلوم لتعويد الإنسان على الفضائل وفهم علاقته بوطنه وأمته.

إن سوء التقدير والجهل بالتاريخ يؤديان إلى الانهيار والتفكك، وهو ما حدث للكثير من الدول والممالك، كما أن التخلف لا يمكن أن نجد له تفسيرا بعيدا عن التاريخ، فابن خلدون درس التاريخ وتتبع أحوال العرب والمسلمين ومن عاصرهم من البربر و ذوي السلطان الأكبر عندما هاله أمر المسلمين من ضعف، فعكف على معرفة أسباب ذلك وما يلزم من علاج لعوامل التراجع والتردي.

العلوم المساعدة:

يرتبط علم التاريخ بمختلف أنواع العلوم والمعارف الإنسانية، ومن أجل ذلك فعلى المؤرخ أن يكون مطلعا واسع الثقافة، عالما وعارفا بالعلوم المتصلة بدراسة التاريخ، وهي كثيرة ومتنوعة، وسنحاول الإشارة إلى بعضها على سبيل المثال لا الحصر:

علم الإنسان Anthropologie:

ربما كان هذا العلم من أكثر العلوم الاجتماعية ملاءمة للمؤرخين، ذلك أن علماء الإنسان والمؤرخين يواجهون مشكلات متشابهة في الرأي عند بحثها، غير أن علماء الإنسان يدرسون ثقافة الإنسان البدائي بشكل عام في حين يدرس المؤرخون الإنسان المتحضر، وليس لعلم الإنسان وجود منفصل كالعلوم الطبيعية بل هو موجود من حيث أنه ميدان يلتقي فيه كل من لهم اهتمام بالإنسان، لهذا ظهرت أربعة فروع منفصلة لعلم الإنسان هي:

علم الإنسان الطبيعي: يدرس التطور البيولوجي للإنسان و تغير السلالات البشرية.

علم الآثار: يسعى لاكتشاف طبيعة و ثقافة إنسان ما قبل التاريخ من خلال الكشوف الأثرية.

علم اللغات الأنثروبولوجي: يحلل الثقافات الشفهية والمدوَّنة.

علم الإنسان الثقافي: يدرس الثقافات المعاصرة للقبائل البدائية والشخصيات والعلاقات البشرية.

وبوجه عام يعالج علم الإنسان المسائل التاريخية عند تتبعه مجرى التطور البشرى وانتشار البشرية ومناهج علم الآثار وعلم الإنسان الطبيعي هي نفسها مناهج دراسة التاريخ، مع تعديلات تتطلبها الدراسة المتخصصة، وعلى هذا الأساس فالباحث في التاريخ لا يمكن أن يستغني عن الدراسات الأنثروبولوجية عندما يدرس مثلا التطور الثقافي فى مجتمع ما لكي يسجل حقيقة مراحل هذا التطور ومدى عملية التأثير و التأثر.

علم الجغرافيا Géographie:

تعتبر الجغرافيا من العلوم المرتبطة بالتاريخ، فالارتباط وثيق للغاية بين التاريخ و الجغرافيا أو بمعنى آخر بين الزمان والمكان، فالأرض هي المسرح الذي حدثت عليه وقائع التاريخ، وهى ذات أثر في توجيه البشر، وبالتالي لها نفس الأثر على سير التاريخ و ذلك تبعا لنوع تفاعل الإنسان مع بيئته و مواجهته لظروفها، ومن هنا على المؤرخ أن يلم بجغرافية المنطقة التي يريد دراستها، والظروف و الظواهر الجغرافية التي تسودها وتؤثر فيها، ولقد بلغ من أهمية الجغرافيا أن ظهرت نظرية لتفسير حركة التاريخ عن طريق الجغرافيا.

ولا يمكن للباحث في التاريخ أن يستغنى عن الدراسات الجغرافية في كافة فروعها مثل الجغرافيا الاقتصادية والسياسية والبشرية والإنتاج، فالباحث في التاريخ الاقتصادي مثلا عليه أن يعرف مناطق الإنتاج و نوع التربة وأنواع المنتوجات وظروف نموها وموسمها، لأن الباحث سوف يربط ذلك بالسياسة الاقتصادية.

وإذا أراد الباحث دراسة التوجهات السياسية لبلد ما فسوف يجد أن الطبيعة الجغرافية تتحكم في هذه التوجهات لحد كبير، فمثلا امتداد نهر النيل في بعض دول شرق إفريقيا يفرض على هذه الدول التي يمر عبرها أن ترتبط بعلاقات بينها لصيانة مصالحهم المشتركة.

ومما يوضح لنا أثر الجغرافيا في تغيير مجرى التاريخ، أن البحر كان السبب الرئيسي الذي أعاق تقدم تيمورلنك بعد أن هزم السلطان العثماني بايزيد الأول في موقعة أنقرة سنة 1402م، وبذلك لم يتمكن من القضاء على الدولة العثمانية الناشئة، وسرعان ما استعادت قوتها وأدت دورا بارزا على الساحة الدولية في مراحل لاحقة.

كذلك ساعدت العواصف الأسطول الإنجليزي على التغلب على القوة البحرية الأسبانية (الأرمادا) سنة 1588م، مما أدى إلى فرض إنجلترا لسيطرتها على البحار وتحولها إلى قوة دولية لا تُضاهى، وكانت سهول روسيا الواسعة وشتاؤها القارس إحدى أهم العوامل التي أدت إلى فشل حملة نابليون بونابرت عليها سنة 1812م

وكذلك كان الحال بالنسبة لزحف الجيوش النازية على الاتحاد السوفياتي عام 1941م، التي توقفت قبل أن تصل إلى موسكو بسبب الشتاء القاسي.

وفى السهول الخصبة والوديان كوادي النيل و دجلة و الفرات، قامت أقدم وأعرق الحضارات البشرية التي عرفها التاريخ الإنساني, أما البيئات الجبلية و الصحراوية فهي بيئات طاردة للسكان تدفع الإنسان للرحيل، فمثلا الطبيعة الجبلية لبلاد اليونان أدت من الناحية السياسة إلى تكوين دولة المدينة، وأدت كذلك إلى هجرة اليونانيين وتكوينهم لمستعمرات خارج بلاد اليونان، إذن فالعوامل الجغرافية المختلفة تؤثر في نشاط الإنسان،كما تؤثر في طباعه وأخلاقه ومزاجه وفي شحذ ذهنه، ومن كل ما سبق يتضح مدى أهمية الجغرافيا كعلم مساعد لدراسة التاريخ.

علم الاقتصاد و الاقتصاد السياسي L'économie Politique:

هما من العلوم الأساسية التي تخدم دراسة التاريخ، فالعوامل الاقتصادية وتوزيع الثروة بين الطبقات، وكذلك وسائل الإنتاج ونوعه وأسلوب التوزيع للثروة والاستهلاك، كلها عوامل حاسمة ولها دورها في تشكيل نوع الدولة وطبيعة النظم فيها والطبقة الحاكمة و أجهزتها و قوانينها إلى غير ذلك من العوامل الهامة في تفسير التاريخ تفسيرا علميا لفترة معينة أو لمنطقة معينة من تاريخ البشرية، والجدير بالذكر أيضا أن هناك مدرسة فَسَّرت وقائع التاريخ على أساس اقتصادي بحت، ومن ضمن أقوال هذه المدرسة أن تاريخ البشرية كله ما هو إلا تاريخ البحث عن طعام.

ويتضح أهمية هذا العلم من هذا المثال فمثلا إذا كانت الزراعة هي النشاط الأساسي للاقتصاد في بلد ما فسوف نجد أن التقسيم الاجتماعي الأساسي في هذا البلد يتكون من طبقتين هما الملاك والمستأجرين، وسوف نجد أن طبقة الملاك وخاصة الكبار منهم يتميزون في المجتمع و تراهم يمارسون النشاط السياسي ويدخلون في السلطات التشريعية والتنفيذية، ويوجهون سياسة الدولة الداخلية والخارجية، وهذا يدخل في باب الاقتصاد السياسي الذي يبحث عن النظام الأمثل لإدارة شؤون الدولة حسب الاقتصاد الأساسي لها والقوى الاجتماعية فيها.

علم الاجتماع Sociologie:

يعتبر هذا العلم من العلوم الوثيقة الصلة بعلم التاريخ التي يحتاج المؤرخ إلى الوقوف عليها لتساعده في فهم الأحداث التاريخية، وعلم الاجتماع كعلوم الإنسان يقوم بدراسة شاملة للأفعال والعلاقات الإنسانية، ومن المعروف كذلك أن التاريخ يهتم بدراسة التغير الاجتماعي مثلما يهتم بدراسة التغير السياسي والديني والعسكري أي أنه يهتم بدراسة المجتمع داخل الزمان ومن الأمور التي تهم كلا من علماء الاجتماع والمؤرخين دراسة الطبقة الاجتماعية ومكانها في المجتمع.

وتنشأ طبقة ما نتيجة تفاوت الظروف الاقتصادية بين الأفراد من حيث قدرتهم على الكسب والإنفاق ويهتم علماء الاجتماع بأسس التناقض الطبقي وأنماط السلوك

التي تميز مختلف الطبقات وبأنواع التوتر التي تنشأ بين تلك الطبقات، وكلُّها مسائل تهم المؤرخ دون شك وتساعده في فهم المجتمع مجال الدراسة.

وعلم الاجتماع هو العلم الذي يقوم بصياغة القوانين التي تتناول علاقات الناس فيما بينهم ، وعلى أي حال إذا أراد الباحث دراسة تاريخ الحركة العمالية في بلد ما، فإنه يتعين عليه الإلمام بأسس علم الاجتماع، حتى يتعلم متى يقول طبقة العمال أو متى يقول العمال فقط ومتى يقول الوعي الطبقي والثقافة الطبقية، أو متى يتكلم عن الطبقة الاجتماعية، ومتى يتحدث عن القوة الاجتماعية، وهكذا الحال إذا أراد الباحث دراسة تاريخ طبقة الملاك الزراعيين أو طبقة الرأسماليين.

علم السكان أو علم خصائص الشعوب Ethnologie:

هو أحد فروع علم الاجتماع ومن العلوم الهامة للباحث التاريخي، إذ يتناول دراسة الشعوب وتكوينها وتوزيعها الجغرافي، والتغييرات التي تطرأ عليها زيادة ونقصانا نتيجة لمختلف العوامل، مثل التكاثر أو الوفاة أو الهجرة أو غيرها من العوامل.

ولا شك أن علم السكان بهذه الصورة يعتبر من العلوم الوثيقة الصلة بالتاريخ ودارسي التاريخ، فقد يضطر المؤرخ للرجوع إلى مصادر علم السكان ونتائجه لتوضيح إحدى نقاط بحثه، أو لتفسير ظاهرة تاريخية ذات جانب سياسي أو اجتماعي أو اقتصادي.

فعلى سبيل المثال يقال أن أحد أسباب قيام الثورة الصناعية في إنجلترا منتصف القرن الثامن عشر قبل فرنسا إنما يرجع ذلك لقلة سكان إنجلترا مقارنة بفرنسا، وحاجة إنجلترا لزيادة الإنتاج لمواجهة الطلب في الأسواق الخارجية في حين أن زيادة السكان في فرنسا كانت تساعد على زيادة الإنتاج لمواجهة الطلب دون الحاجة إلى آلات جديدة تعوض نقص العمال.

علم النفس Psychologie:

يعتبر بفروعه المختلفة من العلوم اللازمة لدراسة التاريخ، إذ أن العوامل النفسية تدخل في تفسير بعض التصرفات الإنسانية، لذلك يجب على المؤرخ التزود بالأسلوب العلمي الذي يقدمه له علم النفس، حتى تكون تفسيراته أقرب إلى الحقيقة إذا ما أخذ بهذا المفهوم في التفسير.

فعلم النفس يهتم بدراسة جوانب النفس البشرية، والتاريخ يدرس أفراد مجتمع ما في محاولة لمعرفة الدوافع المختلفة لهؤلاء الأفراد سواء على المستوى السياسي أو الاقتصادي أو الاجتماعي أو النفسي، لذلك من اللازم أن يحيط المؤرخ نفسه بأهم نتائج علم النفس وتحليلاته ليتمكن من تفسير مثل هذه الدوافع التي تحرك الأفراد وخاصة الأبطال والعظماء.

والحقيقة أن علم النفس قد يحتاجه الباحث في التاريخ إذا لم يستطع تفسير أية حركة سياسية بأسباب اقتصادية أو اجتماعية، وعند ذلك يمكن البحث عن أسرار

الحركة في التاريخ الشخصي للزعيم من حيث البيئة التي نشأ فيها والأسرة التي تربى فيها، للبحث مثلا عن عقد نفسية معينة مسؤولة عن حركته ضد آخرين أو معهم وهذا الجانب النفسي في التاريخ قريب من عالم الميتافيزيقا المجهول للناس، وباب الاجتهاد فيه واسع ويجب أن يؤخذ بحذر شديد.

علم السياسة:

هو ذلك العلم الذي يهتم بطائفة مختارة من العمليات الاجتماعية التي تؤدي إلى تحديد السياسات واتخاذ القرارات وتدور حول شرح مفهوم القوة أو السلطة في الدولة، أي تبحث العوامل التي ترسم علاقة القوى الاجتماعية بعضها ببعض، وعلاقاتها بجهاز الحكم وفي النهاية ترسم السياسة العامة التي تشكل الظاهرة السياسية مثل البناء الطبقي والمعتقدات الدينية ومذاهب العقيدة السياسية والثقافية، كما يتناول دراسة الجماعات ذات المصلحة التي هدفها السيطرة على الحكم أو المشاركة فيه، كما أن العلاقات الدولية من الأمور التي يهتم بها علم السياسة.

وعلى الرغم من أن المسائل السياسية تعتبر المحور الرئيس الذي دارت حوله اهتمامات المؤرخين إلى حد كبير، إلا أنه ينبغي التنويه إلى ضرورة الاهتمام بدراسة السياسة كعلم، لأن مجال اهتمام كل من علم التاريخ وعلم السياسة يكاد يكون متشابها إلى حد كبير، ومن هنا فإن فهم أبعاد هذا العلم ومناهجه من الأمور الضرورية للمؤرخ، والقاعدة هنا أن التاريخ يبدأ من حيث تنتهي السياسة، ويأخذ

المؤرخ مكان السياسي عندما ينتهي دور الأخير، ويخرج من الصورة التي لا يبقى بها إلا المؤرخ والحدث فقط، وطالما لا يزال الحدث السياسي قائما ومتجددا، فلا يمكن دراسته تاريخيا حتى ينتهي الحدث، ويغلق الملف علامة على انتهاء فترته، هنا فقط يمكن دراسته تاريخيا.

علم الخطوط Paléographie:

لكل عصر خط يميزه ولغة تميزه يتطور عبر الزمن، ويبدو بعضها أحيانا مثل الطلاسم لا يمكننا فهمها، وقد ظهرت أهمية هذا العلم عندما استطاع المستشرق الفرنسي شامبليون فك رموز الكتابة المصرية القديمة (الهيروغليفية) بعد الحملة الفرنسية على مصر، وباكتشاف رموز تفسير تلك الكتابة، عثر العلماء على الكثير من الحقائق المتصلة بالحضارة الفرعونية، ولا يقتصر الأمر على الهيروغليفية بل اللاتينية القديمة أو الإغريقية أو العربية القديمة في جنوب الجزيرة العربية والأنباط في الشرق الأدنى أخرى تتعلق بالنقوش وغيرها كثير.

علم الأختام والرُّنوك Sigillographie et Héraldique:

تتصل الأختام بالوثائق، وتمهر بها المراسلات الرسمية بين الحكام، وهي ذات أشكال مختلفة تصنع من الشمع أو المعادن المختلفة، فدراسة الأختام ضرورية لدراسة تاريخ فترة معينة لاستنتاج الكثير من الحقائق، والملاحظ أن فترة القرون الوسطى أكثر غنى بالأختام عنها في العصور القديمة، وتعبر الأختام أفضل دليل

لإثبات أصالة الوثائق بمختلف أنواعها سواء ما تعلق بالاتفاقيات السياسية أو التجارية أو تنظيم المجتمعات.

أما الرنوك فهي العلامات المميزة للحكام والممالك والأسر، تظهر على الأختام والدروع والأزياء العسكرية والرايات والأعلام لتميزهم عن غيرهم، وهي ذات دلالات، ومعروفة منذ القدم، اختلفت أشكالها (طيور، حيوانات كاسرة، فيلة...)،وتفيد في معرفة وإثبات صحة مرحلة من المراحل التاريخية أو عصر معين، ظهرت في أوربا منذ القرن 12م، وكانت في بداية الأمر رمزا للتعارف، ثم أصبحت شعارات تمثل الأسر، واستخدمها أمراء الإقطاع على أسلحتهم وفي أثاث بيوتهم وقصورهم وفي أختامهم وكتبهم ورسائلهم، وفائدتها كبيرة للبحث التاريخي فهي توجهه نحو تحديد الزمن، وإثبات صحة ما يعثر عليه من أسلحة ودروع ومقتنيات، وفي العصور الإسلامية المتأخرة، عثر على تلك الرنوك في شكل كؤوس وأهلة وذيل الحصان وغيرها من الشارات استخدمها السلاجقة والمماليك والعثمانيين.

علم اللغات Linguistiques:

من العلوم التي لا بد للمؤرخ التزود منها، فمن الضرورة الإلمام باللغات القديمة أو الحديثة، فالترجمة غير كافية، ومن الأفضل الرجوع إلى المؤلفات بلغاتها الأصلية، وبدون ذلك لا يمكن للباحث أن يقطع شوطا في البحث التاريخين فدار س

تاريخ العرب عليه أن يفقه اللغة العربية، والمهتمين بتاريخ الإغريق عليهم بمعرفة اللغة اليونانية، ودارسو العصور الوسطى عليهم أن يعرفوا اللغة اللاتينية.

وكلما تعددت اللغات التي يتقنها الباحث، فسيكون قادرا على الرجوع إلى المصادر الأصلية وإدراك الحقائق من منابعها مباشرة، بدلا من الاعتماد على الكتب المترجمة التي قد تشوه المعاني الحقيقية وتحرفها، والأسوء من ذلك هي جعل الباحث عالة على غيره من الباحثين والمترجمين، لكن وجب التنبيه أن علم اللغات ليس هو نفسه علم فقه اللغة (الفيلولوجيا)، فالأول يدرس اللغة كنشاط إنساني، أما الثاني فيدرس الوثائق المكتوبة وانتقالها، ومعرفة لغة أو بعض اللغات لا يعني أن الباحث قد أحاط به علما بل ليس ذلك إلا مجرد معرفة بسيطة في بحر من المعارف.

علوم أخرى:

هناك مجالات للإبداع الإنساني يمكن أن تفيد باحث التاريخ غير العلوم السابقة الذكر، مثل ألوان الآداب والفنون المختلفة، فالأدب مرآة العصر وهو تعبير عن أفكار الإنسان وعواطفه، ويفصح عن دواخل البشر ويرسم نواحي مختلفة من حياتهم الواقعية التي قد لا ترد في المصدر التاريخي، ولعل أوضح دليل على ذلك هو تلك الدراسات التي يقوم بها المشتغلون بالأدب عن الاتجاهات السياسية والوطنية في شعر أحد الشعراء أو الأبعاد الاجتماعية و السياسية في الرواية عند أحد الأدباء.

في الواقع يمكن أن نرصد الكثير من وقائع أو حوادث التاريخ في قصيدة شعر انفعل صاحبها بالحدث فأخرج انفعاله على شكل قصيدة وقد تكون أكثر بلاغة وأعظم فائدة مما لو كتبت في مصدر لأن القصيدة تعبِّر بلا زيف عن الحدث وتسجل بوضوح انفعال عامة الناس به، فالمصدر يمكن أن يوجز في ذكر الحدث أو لا يكتب الحقيقة، أو يقلل مما حدث نتيجة لاعتبارات كثيرة، والإلمام بنواح من فنون الرسم والتصوير و النحت و العمارة والآثار والنقود المعدنية (المسكوكات) والوثائق الخاصة بعصر ما، تساعد كثيرا على فهم تاريخ ذلك العصر، فهذه الفنون مثلها مثل الأدب تعتبر مرآة للعصر تعكس طريقة حياة أهله، وعلى الباحث أن يكتسب معرفة عميقة بموضوعات متنوعة.

3. في الحضارات القديمة:

1.5. عند الإغريق:

شاع القول أن أقدم الكتابات التاريخية عند الإغريق تمثلتا في الإلياذة والأوديسة اللتان تنسبان لهوميروس (ق 9–8 ق.م)، وهما ملحمتان شعريتان تضمنتا الكثير من الأساطير المتعلقة ببطولات آلهة اليونان القديمة، وفي بداية القرن 6 ق.م أدخل كادموس Cadmos طريقة للكتابة اعتمد فيها على النثر بدلا عن الشعر، وهكذا اعتبر من أوائل مؤلفي النثر الإغريقي، أو ما أطلق عليهم مصطلح Logographie ، وقد ساهمت عدة عوامل في تطور الكتابة التاريخية في بلاد الإغريق كحركة الاستعمار والتجارة والرحلات والحروب.

وفي نظر البعض أن هيكاتايوس Gecatays المالطي (ق 6 ق.م) هو أول مؤرخ إغريقي وهو رحالة كتب عن أصل الإغريق وأنسابهم وهجراتهم مركزا على ما اصطلح على تسميته بالجغرافيا التاريخية، وجعل الحقيقة مقياسا لما يرد من روايات منتقدا الأساطير القديمة وكانت افتتاحية كتابه الأنساب Genealogies أول محاولة للنقد التاريخي بمعطيات ذلك الزمان، فيقول في هذا الصدد: «...إن ما أدونه هنا هي الرواية التي اعتبرها صادقة وحقيقية، لأن قصص الإغريق عديدة، وهي في رأيي تبعث على السخرية...» ، ورغم سلامة أسلوبه وعلميته إلا أنه كان كثير الخطأ.

ثم جاء هيرودوت Hérodote (القرن 5 ق.م) الذي بالغ البعض حين لقبوه بأبي التاريخ، رغم قيامه بعمل منظم، وهو رحالة جال في العديد من الحواضر كمصر والشام وآسيا الصغرى وصقلية والجزر الإيطالية فضلا عن بلاد الإغريق كلها وقدم وصفا حيا ودقيقا لمشاهداته، وجمع الكثير من الأخبار وشهد الأحداث، واعتمد على روايات الشهود العيان رغم افتقار بعضها إلى الدقة والحقيقة، وكتب عن الحرب بين الإغريق والفرس فكانت كتاباته عنها ذات أهمية كبيرة في فترة تميزت بالجدب من حيث المصادر التاريخية.

ومع أهمية المعلومات التي قدمها كما قلنا سابقا، إلا أنه أظهر ضعفا في سرد تفاصيل الحروب والمعارك، مما يوحي بقلة اهتمامه وميله لهذا الجانب، لكنه كان عادلا في أحكامه عن الفرس الذين وصفهم بالشجاعة رغم أنهم كانوا أعداء له ولوطنه، واعتبر هذا الصراع احتكاكا قويا وصداما بين حضارتين وثقافتين مختلفتين.

ولنا أن نذكر أحد كبار مؤرخي الإغريق ونعني بذلك ثيوسيديد Thucydides (456- 396 ق.م) الذي كتب بأسلوب علمي بعيد عن الخرافة وتخلى عن الأسلوب القصصي، واعتمد المنطق وتحكيم العقل، ويعد من أوائل المؤرخين الإغريق الذين أولوا أهمية للعوامل الاقتصادية والاجتماعية، وكانت حروب البيلوبونيز (431- 404 ق.م) بين أثينا وإسبرطة هي الموضوع الرئيسي الذي عالجه في كتاباته، وكان أحد القادة العسكريين الأثينيين الذين اشتركوا فيها، فكان

عمله أشبه بالمراسل الحربي وشاهد عيان ومعاصرا لأحداث مفصلية وناقدا وسياسيا مقتدرا.

يكاد يكون أسلوب ثيوسيديد في الكتابة أشبه بالكتابات القائمة على منهجية علمية وفق شروط صارمة، تعتمد في المقام الأول على الصدق والتثبت من المادة التاريخية وتنسيقها ونقدها، ومراعاة الأسباب والظروف المحيطة بالأحداث، فضلا عن امتلاكه للأسلوب وتحكمه في ناصية اللغة، ورغم تفرده بهذه المميزات إلا أنه وقع في الكثير من الأخطاء التي لا يسلم منها أحد من البشر، منها إهماله للعامل الجغرافي والثقافي وتركيزه على العوامل السياسية والحربية.

أما بولبيوس Poybius (198- 117 ق.م) فيعد آخر كبار مؤرخي الإغريقن صور من خلال كتاباته اضمحلال الإمبراطورية الهلينية، وصعود الرومان كقوة جديدة، وعرض في كتاباته منهجا علميا صحيحا، وأظهر اهتماما بالجغرافيا والطبوغرافيا والسياسة واعتمد على الوثائق المكتوبة وحاول إثبات صحتها مبتعدا عن العاطفة التي تفسد العمل التاريخي.

لقد ساهم الإغريق في تطور التاريخ وتسجيل أحداثه وفق طرق معينة، كحساب الزمن على أساس دورة الألعاب الأولمبية التي ابتكرها تيمايوس Timaeus (القرن 4 ق.م)، أو ضبط الفترات الهامة بالاعتماد على التقديرات الفلكية وفق الطريقة التي

ابتدعها إيراتوسثينز Eratosthens (ت 194 ق.م؟)، وهي أعمال خلدها التاريخ كما خلد جهودهم في الكثير من العلوم وفي مقدمتها الفلسفة.

2.5. عند الرومان:

سار الرومان على خطى الإغريق في الكتابة التاريخية وفي سائر المظاهر الحضارية، وحتى أعمالهم التاريخية المتمثلة في الحوليات كانت مدونة باللغة اليونانية، وأغلبها دونه مؤلفون إغريق بينما اقتبس بعضهم من أدب الإغريق، ويعد ماركوس كاتو (234- 149 ق.م) أول من دون تاريخ روما من الرومان من خلال كتابه "الأصول"، أما أول كتاب باللغة اللاتينية هو "الحرب الغالية" ليوليوس قيصر (100- 44 ق.م) الذي يعد أحد أشهر القادة السياسيين والعسكريين في تاريخ رومان، وزيادة على ذلك فقد كان مؤرخا مقتدرا اتسم أسلوبه بالقوة والدقة.

أما كورنيليوس تاكيتوس C. Tacitus (55- 120م) فقد ألف كتاب "التواريخ" و"الحوليات" التي تضمنت وصفا لما في القصر الإمبراطوري من فساد وانحلال ودسائس ومؤامرات وهو ما اعتبره البعض أخلاقيا ومتعصبا ضد الإمبراطورية أكثر منه مؤرخا، وإذا نظرنا في كتابات غايوس سالوست Sallust (86- 34 ق.م) فيعتبر أكثر منهجية من بين سابقيه، وتاريخه عن روما مفقود، وقد كتب أيضا عن الحروب بين روما ونوميديا، وأسلوبه قوي ورصين ولم يكن متحيزا ونجح في تصوير

الشخصيات التاريخية وتحليلها، لكن مما يعاب عليه عدم ضبطه للتواريخ وإلمامه بالجغرافيا.

وبرز من مؤرخي الرومان أيضا تيتوس ليفيوس (59- 17 ق.م) الذي تميز بالنزعة القومية في كتاباته الملحمية ممجدا تاريخ روما نافخا لروح الحماسة في شباب الرومان، لكنه وقع في شراك الاعتماد على الروايات غير الموثوقة والمليئة بالخرافة مع ذكر بعض التفاصيل التي لا قيمة لها من وجهة النظر التاريخية.

رغم أن الرومان كانوا عالة على الإغريق في مجال الكتابات التاريخية، إلا أن ذلك لم يمنع من بروز مؤرخين سطروا صفحات مجيدة من تاريخ روما في أوقات السلم والحرب، وابتعدوا عن الأساطير والخرافات وتمجيد الآلهة التي اشتهرت عند الإغريق، ومجدوا بدلا عنها القادة والأبطال، وتغنوا بتاريخ روما وقوتها بين ظهرانيها من الإمبراطوريات والدول.

4. في العصور الوسطى:

في هذه المرحلة آلت الإمبراطورية الرومانية إلى التفكك، بسبب هجمات القبائل البربرية على غرب أوربا، وحاول الإمبراطور دكليانوس إنقاذ الإمبراطورية فاختار قرية صغيرة على ضفاف مضيق البوسفور يطلق عليها بيزنطة، وتنازل بعدها على العرش فأعقب ذلك نزاع انتهى بتغلب قسطنطين الذي نقل العاصمة إلى

المدينة التي اشتقت من اسمه ودعيت القسطنطينية منذ عام 330م، وهكذا تم إنقاذ جزء من أراضي الإمبراطورية بينما كانت بعض مقاطعاتها نهبا للبرابرة الجرمان.

أصبحت المسيحية الديانة الرسمية للإمبراطورية الرومانية بعد أن اعتنقها الإمبراطور تيودوسيوس (338- 395م) وأضحى لرجال الدين مكانتهم بين أركان الدولة، بعد أن عانوا من الاضطهاد والقتل، وتوفرت المصادر التاريخية المرتبطة بالمسيحية التي من بينها ما كتبه أوزيبيوس (ق 4م) في قياس الزمن و قواعد حسابه عند الوثنيين واليهود والمسيحيين وغيرهم والأحداث منذ بدء الخليقة إلى السنوات الأولى من حكم الإمبراطور قسطنطين، وترجم هذا الكتاب من اليونانية التي يتقنها أوزيبيوس إلى اللاتينية، وبدا متأثرا بنظرية القديس أغسطين القائلة بأثر القدرة الإلهية في تحريك التاريخ وتقرير مصائر الشعوب والدول.

وجاء بعد أزيبيوس Eusebius (263-339م؟) من واصلوا مسيرته في كتابة التاريخ المسيحي، أما الكتابات الخاصة بالكنيسة المسيحية فأهمها "التاريخ المقدس" لمؤلفه سولبيكيس سيفيروس Sulpicuis Severus (146- 211م) أراد صاحبه الإشادة بالكنيسة، إلا أنه لم يحظ بالإشادة إلا في عصر التنوير بعد القرن 15م لبلاغته وسلامة أسلوبه، كما ظهرت ظهرت كتابات عن رجال الكنيسة وحياة القديسين، ومن المؤلفات التي اشتهرت في تلك الفترة كتاب "الاعترافات" للقديس أغسطين Saint Augustin (354- 430م) وكتاب "مدينة الله" وهو مزيج من

الفلسفة والجدل، صور فيه أحداث التاريخ على أنها صراع بين مدينة الله ومدينة الشيطان.

ظلت المسيحية مهيمنة على الحياة العامة في الغرب الأوربي لقرون عديدة، وعلى الكتابات التاريخية التي اتسمت بالجمود والإيمان بالخوارق، وفي أواخر العصر الوسيط اهتزت مكانتها ببروز حركة إحياء التراث الإنساني والدراسات الوثنية والجدل الذي أفرزه عصر النهضة، وفي الفترة ذاتها ظهرت الحوليات والمدونات التاريخية Chronocles تختص بتاريخ مدينة معينة على غرار نانت ولندن وفلورنسا وجنوة وكولونيا، ثم اتسع نظام الحوليات فظهرت مدونة الإنجلو ساكسون التي اتسمت بالعرض التاريخي، وأصدر الراهب ماتيو Mathew Paris (ت 1259م) كتاب "التاريخ الأكبر".

وهناك شكل آخر من الكتابة التاريخية عرفت بالكاتلوغ Catalogue فيها تراجم لقديسين ونبلاء وإقطاعيين، ونذكر أيضا مدونة الراهب أوتو Otto (1158م) المؤرخ والفيلسوف المطلع على الكثير من أحداث عصره بفضل قرابته من العاهل الجرماني فريديريك بربروسة F. Barbarosa (ت 1190م) ومرافقته له في رحلاته وأسفاره في الشرق والغرب وما دونه من مشاهدات وانطباعات.

وهكذا فإن أغلب المؤرخين في العصور الوسطى دونوا الحوليات متبعين طريقة عرض الأحداث وفق السنوات، لكن جرى التخلي تدريجيا عن هذا الأسلوب

في الكتابة واقتربت الكتابة التاريخية أكثر من الصبغة العلمية بتأثير عاملين، الأول يتعلق بتأثير الحضارة الإسلامية، وبدا هذا التأثير واضحا من خلال بعض المؤلفات كالحولية البيزنطية العربية التي ضمت أخبار ملوك إسبانيا وبيزنطة والأندلس، والحولية المستعربة لمؤلف مجهول عن مدينة قرطبة من مصادر عربية، أما العامل الثاني فيتعلق باكتشاف الطباعة عام 1450م، وهي مرحلة بداية تحول الكتابة التاريخية من رجال الدين إلى العلمانيين وانهيار سلطة الإقطاع وظهور القوميات وزوال طبقة الأمراء.

5. في العصور الحديثة:

تغير الفكر التاريخي في عصر النهضة، وتخلص المجتمع والتاريخ والسياسة من سيطرة الكنيسة، وأصبح ينظر إلى التاريخ كجزء من العلوم الدنيوية واصطبغ بالصبغة الزمنية، وهكذا تحولت الكتابة التاريخية من رجال الدين (طبقة الإكليروس) إلى العلمانيين الذين أدخلوا أساليب جديدة في الكتابة، وانبعثت روح النقد للوثائق التاريخية.

يعتبر فلافيوس بلاندوس Flavius Blondus (1388- 1463م) أحد أبرز من سار في هذا الاتجاه، فكتب عن تاريخ الرومان والنصرانية وحكم العقل والمنطق في كتاباته التي اعتمد عليها المؤرخون في مراحل لاحقة، ونذكر من مفكري عصر النهضة نيكولا ميكيافيلي Nicolas Machiaveli (1469- 1527م) الذي ألف كتاب

الأمير وكتب عن تاريخ فلورنسا، وفي بريطانيا برز تيودور فرجيل (1470-1555م) الذي ألف عن تاريخ إنجلترا في عهد هنري السابع (1457- 1509م).

ومنذ القرن 15م فقد شهدا دخول عناصر جديدة في الكتابة التاريخية، بعد تصاعد حركة الكشوفات الجغرافية، ووصول المستعمرين الأوربيين إلى المكسيك وبيرو وجزر الهند الغربية، واكتشافهم لحضارات الأزتيك والإنكا والمايا، وأثار ذلك خيال المفكرين فاتسع مجال البحث ليشمل العادات والنظم الاجتماعية والسياسية والدينية، وكان الإسبان والبرتغاليين من السباقين في هذا المجال.

وأدت أيضا التغييرات الاقتصادية العميقة في غرب أوربا بعد ظهور الرأسمالية وتطورها إلى إلغاء نظام الإقطاع، مما دفع من الأمراء إلى البحث عن الوثائق التي تحفظ مكانتهم وتدعم سلطتهم، وهو ما أفاد في دفع عجلة الكتابة التاريخية نحو الأمام بفضل تلك الأصول المعرفية.

أما التأثير السياسي لحركة الاستعمار، فتمثل في اهتمام الدول بمكانتها الدولية ودعمها بمختلف الأشكال، ومن بين القضايا السياسية التي حسمها البحث التاريخي، الصراع الذي نشب في إنجلترا بين آل ستيوارت والبرلمان الذي مثله أوليفر كرومويل Oliver Cromwell (1599- 1658م)، فالتيار الأول تمسك بالحقوق والامتيازات التي منحها لهم الملك هنري الثامن Henri VIII (1491- 1547م) وإليزابيث الأولـى Elizabeth I (1533- 1603م) دون أن يعترض البرلمان، أما

التيار الثاني فنطالب بحقوقه التي حصلوا عليها في عهد هنري السادس Henri VI(1421- 1471م)، وعكف كل فريق على دراسة الوثائق والقوانين لإثبات شرعية ادعاءاته، وهو ما أفاد الكتابة التاريخية أيما إفادة من خلال المؤلفات الغزيرة عن تطور التاريخ الدستوري لإنجلترا.

إن انشغال أوربا بالحروب الدينية والسياسية أعاق حدوث تغيير كبير في الفكر التاريخي، لكن مع نهاية القرن 18م ظهر كتاب بعنوان "مبادئ علم جديد" سنة 1725م من تأليف جيانباتيستا فيكو Giambattista Vico (1668- 1744م) الذي عاش في نابولي، وتبنى فكرة انتقال التاريخ من ميدان الحرب إلى البحث، واعتبره فرعا من فروع المجتمع الإنساني، لكنه لم يستطع دراسة الوقائع لأنه كان قانونيا ولم يكن مؤرخا.

إن هذه المبادئ ألهمت الفيلسوف الفرنسي مونتسكيو (1679- 1755م) الذي اشتهر بالنقد، وأصدر كتاب "روح الشرائع" الذي بلغت شهرته الآفاق، واستغرق في تأليفه اثنتي عشر سنة، وتناول في بعض طياته تطور الشعبين الفرنسي والإنجليزي في الميدان الدستوري، مقارنا بين أوضاعهما وما كانت عليه الأمم الأخرى من تطور في هذا المجال.

ثم جاء بعد فرانسوا فولتير (1694- 1778م) الذي اشتهر بالنقد فكتب عن شارل الثاني عشر ملك السويد، وعصر لويس الرابع عشر، وله مقالة في الآداب

معترفا بفضل الحضارة الإسلامية على الغرب، وأثرت نزعته العقلانية على الكثير من المؤرخين من أمثال الفيلسوف الإنجليزي ديفيد هيوم (1711- 1776م) ووليم روبرتسون (1721- 1793م) وإدوارد جيبون (1737- 1794م) الذي ألف كتابا نال شهرة واسعة هو "اضمحلال وسقوط الإمبراطورية الرومانية" وترجم إلى عدة لغات.

وكانت الثورة الفرنسية حافزا للفرنسيين بصدور قانون تأسيس الأرشيف القومي الفرنسي سنة 1790م وهي مرحلة توجيه التاريخ خدمة لأغراض توسعية استعمارية، وفي أثناء الحروب النابليونية استولى الفرنسيون على الوثائق والمخطوطات المحفوظة في إسبانيا وبروسيا وبلجيكا والفاتيكان ونقلوها إلى الأرشيف المذكور، وفي ذات المرحلة ظهر مؤرخون تخلوا عن المبادئ التي صاغها فولتير وأمثاله وأعادوا إحياء تراث وأمجاد العصور الوسطى ومن أبرز من مثل هذا الاتجاه نجد فرانسوا شاتوبريان (1768- 1848م) وأدى ذلك إلى إحياء دراسة المخطوطات وأصول التاريخ الأوربي الوسيط الذي كان قد أهمل في عصر الاستنارة.

وفي إنجلترا ظهرت مجموعة هال اشتملت على تاريخ إنجلترا وأسكتلندة المطول، وفي إسبانيا ظهرت مجموعة الشؤون الإسبانية، وفي ألمانيا ظهر مؤلف الملكية في الدولة الرومانية، وفي إيطاليا ظهرت الشؤون الإيطالية، وهكذا تهيأت الظروف في القرن 19م إلى قيام دور للوثائق في كل من فرنسا والنمسا

وإسبانيا وإنجلترا والولايات المتحدة الأمريكية، كما ظهرت مدارس تاريخية تشبعت بروافد فكرية متنوعة وتوسع مجال البحث ليشمل مختلف المجالات.

6. المدارس التاريخية:

سنتعرض هنا إلى جانب مما اصطلح على تسميته بفلسفة التاريخ التي انتعشت في عصر التنوير وهي فترة تلت مرحلة العصور الوسطى وسطوة الكنيسة، ظهرت أفكار فلسفية عبرت عن تطور واضح في الفكر الإنساني تحت تأثير مبادئ الثورة الفرنسية في أواخر القرن 18م والثورات التي اندلعت في أوربا، وهكذا شكلت هذه التطورات بروز تصاعدية في الفكر الإنساني قادها بعض الفلاسفة والمفكرين الذين اعتمدوا على مناهج حديثة ووظفوا النقد، وتوخوا الدقة وأرسوا معالم وأسس للتاريخ كعلم، الأمر الذي قاد من جاء بعدهم من المؤرخين إلى تأسيس مدارس تاريخية أعطت للتاريخ معاني جديدة لا تعتمد على مجرد السرد فحسب، بل تسعى إلى تحريره من القيود القديمة التي صفدته لقرون طويلة، وفي ما يلي سنشير إلى أهم المدارس التي ظهرت في الفترة الحديثة والمعاصرة، وكان لكل منها نظرتها النقدية للتاريخ ومنهجها وآراؤها وأقطابها وأنصارها.

أ. المدرسة الوضعية:

ظهرت في زمن ظهور حركة القوميات في أوربا وبرنامج التوسع الاستعماري، وقد أفصح رائد هذه المدرسة ج. مونود G. Monod (1844– 1912م) عن مبادئ

المدرسة المتمثلة في فرض بحث علمي في التاريخ بعيدا عن المزايدات الفلسفية والسعي لبلوغ الموضوعية المطلقة في مجال التاريخ، وتطبيق تقنيات صارمة في جرد الوثائق ونقدها.

ومما ساهم في نمو هذه المدرسة هو تواجد مؤرخيها ضمن هيئات التدريس في الجامعات الكبرى والمعاهد والمجامع العلمية، على غرار تاريخ فرنسا والتاريخ العام وشعوب وحضارات وساهموا في ضبط المناهج والبرامج التعليمية والكتب المدرسية، فغرسوا الشعور القومي والرغبة الاستعمارية التوسعية في أذهان الناشئة، مستهدفين تمرير خطاب إيديولوجي اتسم بالتطرف.

انتصبت هذه المدرسة مدافعة عن نظام قائم على تنمية الشعور القومي الذي يستمد جذوره من الماضي، أي أن التاريخ يجب أن يدرس اعتمادا على الوثائق المكتوبة وبالتركيز على الوقائع أما مهمة مهمة المؤرخ الأساسية فتكمن في تجميع الوثائق والعمل على صيانتها وحفظها في دور الأرشيف واستغلالها بكل تجرد وحياد على غرار ما دعى إليه رائد المدرسة الوضعية المؤرخ الألماني ليوبولد فون رانكه L. V. Ranke (1795- 1886م).

تأثرت المدرسة الفرنسية بالمدرسة الألمانية وظهر ذلك من خلال وجود مؤرخين فرنسيين أقاموا في ألمانيا ودرسوا بجامعاتها فنقلوا إلى فرنسا أفكار رانكه ونذكر من

أولئك المؤرخين: مونود و شارل سينيوبوس Seignobos (1854– 1942م) وشارل لانغلوا Langlois (1863 –1929م).

فالتاريخ في نظر الوضعيين هو انعكاس محتوى الوثائق المكونة لرصيد المؤرخ المعرفي، وعلى المؤرخ البحث عنها والعمل على حفظها وصيانتها وضبطها في فهارس، ثم يقوم المؤرخ في مرحلة أخرى بنقد الوثائق داخليا وخارجيا، ثم تليها عملية التأليف بمقارنة الوثائق وتجميع الأحداث.

ب. المدرسة الاستشراقية:

اهتم الاستشراق بعلوم الشرق وآدابه وعاداته وعباداته وحضارتهن ويطلق على من جنحوا للبحث والتنقيب في هذا الاتجاه بالمستشرقين وهم فئة من الباحثين الذين عكفوا على البحث والتأليف وإبداء آرائهم في مختلف القضايا التي تخص العالم الإسلامي والبلاد العربية على وجه الخصوص.

وبحكم تشعب هذه الظاهرة الإنسانية واتساع مجال اهتماماتها، فسنركز على طائفة من المستشرقين الذين تخصصوا في دراسة تاريخ وحضارة العرب ويطلق عليهم تمييزا لهم عن غيرهم لفظ المستعربون، ويمكن القول أن الحركة الاستعمارية قد وفرت لهؤلاء الباحثين تسهيلات واسعة وأغدقت عليهم من الأموال للتنقل بحرية في البلاد المستَعمَرة للقيام ببحوثهم في ظروف خصبة، فتأسست مجامع بحثية

وجمعيات جغرافية ومؤسسات كبرى ومجلات وعقدت المؤتمرات بشكل دورين لعرض أعمالهم ونتائج بحوثهم.

وما يهمنا في هذا الاتجاه هو الأعمال التاريخية التي قام بها المستشرقون خاصة ما تعلق بالنشر والتحقيق، ولنا أن نذكر على سبيل المثال لا الحصر طائفة مما أنتجه جنود هذه المدرسة من المستشرقين، فعلى صعيد التآليف نذكر منها:

- *Histoire des Arabes* (تاريخ العرب) للمستشرق شارل إيمانويل سيديو Sédillot (1804- 1883م) نشر عام 1854م.
- Les Rois de Grenade (تاريخ بني الأحمر ملوك غرناطة) للمستشرق موريس دي مومبين (1862- 1957م) Maurice Gaudefroy Demombynes نشر عام 1898م.
- حياة الحجاج بن يوسف الثقفي للمستشرق الفرنسي (1826- 1908م) Jean perrier نشر سنة 1902م.
- تاريخ إسبانيا الإسلامية (3 مجلدات) للمستشرق الفرنسي ليفي بروفنسال (1894- 1956م) *Évariste Lévi-Provençal* ما بين سنتي 1950- 1953م.
- دراسة عن حلب Alep : Essai sur le développement d'une grande ville syrienne, des origines au milieu du XIXe siècle

للمستشرق الفرنسي جان سوفاجيه (1901- 1950م) Jean Sauvaget سنة 1941م.

أما في مجال النشر والتحقيق والترجمة فقد أخرج لنا المستشرقون نفائس وكنوز المخطوطات والأسفار العربية القديمة فسبقونا إليها واستولوا عليهان ونشروها بإضافة أذيال وتعاليق وترجمات مقتضبة بلغاتهم الوطنية، ويضيق بنا المجال لعدها والإحاطة خبرا بمواضيعها، ولنا أن نذكر شذرات منها على سبيل المثال لا الحصر:

- نشر وترجمة آثار البلاد وأخبار العباد للقزويني للمستشرق فستنفلد (1808- 1899م) Ferdinand Wüstenfeld سنة 1848م.
- نشر كتاب البلدان لليعقوبي للمستشرق الهولندي جوينبول (1866- 1948م) Theodor Willem Juynboll سنة 1861م
- نشر وترجمة كتاب المقدمة لعبد الرحمان بن خلدون في ثلاثة أسفار للمستشرق الفرنسي البارون دي سلان (1801- 1879م) De Slane أعوام 1863- 1865- 1868م.
- نشر وترجمة سيرة ابن هشام للمستشرق الألماني فايل (1808- 1989م) Gustave Weil عام 1864م.
- نشر وترجمة كتاب المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار للمقريزي للمستشرق الفرنسي قاستون فايت (1887- 1971م) Gaston Weit عام 1911م.

- نشر وترجمة تاريخ فتح الأندلس لابن القوطية للمستشرق الإسباني جوليان ريبيرا تاراقو (1858- 1934م) Julián Rivera y Tarragó سنة 1926م.

تواصلت جهود الطباعة والنشر والتأليف في عواصم الاستشراق في ليدن وباريس ولندن وروما وفينا مدريد وغيرها، لكنها لم تعد بنفس الزخم الذي كانت عليه في الفترة الاستعمارية، بعد انحسار الاستعمار الأوربي وظهور ردود أفعال معادية لكل ما هو غربي، بالتشكيك في نواياهم والتوجس من أعمالهم وجهودهم وأهدافهم.

ج. المدرسة المادية (الماركسية):

ظهرت منذ النصف الثاني من القرن 19م بفضل جهود اليهودي الألماني كارل ماركس Karl Marx (1818- 1883م) الذي درس بجامعات ألمانيا وطوف عواصم أوربا، وربطته علاقات قوية بفريدريك إنجلز F. Engels (1820- 1895م).

أصدر ماركس باكورة أعماله من خلال كتابه نقد الاقتصاد السياسي سنة 1859م، وفي سنة 1867م صدر له الجزء الأول من كتابه ذائع الصيت رأس المال، ثم أصد صديقه إنجلز الجزء الثاني سنة 1885م بعد وفاة ماركس، ثم الجزء الثالث سنة 1894م.

عارض ماركس ما ذهب إليه الفيلسوف الألماني هيغل Higel (1770- 1831م) من أن الدولة لا تشكل المجتمع المدني، بل المجتمع هو من يشكلها،

وانتقد ما ذهب إليه بعض المنظرين الاقتصاديين الإنجليز والفرنسيين من أمثال آدم سميث Adam Smith (1723– 1790م)، واكتشف أهمية العمل في حياة الطبقة العاملة، وأن العلاقات الاجتماعية القائمة بين الناس قائمة على علاقة إنتاج أي القوى المنتجة والمتمثلة في مصادر الطاقة والمواد الأولية والعمال، وأي تغيير في شكل العمل تترتب عنه تغييرات أخرى، فنمط الإنتاج يحدد نوعية العيش الاجتماعية والثقافية والسياسية.

ومن هذا المنطلق ذهب ماركس إلى أن التناقضات بين القوى المنتجة وعلاقات الإنتاج التي أدت إلى صراع طبقي بين الطبقة المالكة والمهيمنة على وسائل الإنتاج والطبقة الكادحة المستَعْبَدَة هي المحرك الأساس للتاريخ، وحسب وجهة نظره فتاريخ أي مجتمع هو تاريخ صراع طبقي، وما يميز طبقة عن أخرى هو امتلاكها أو عدم امتلاكها لوسائل إنتاج وما يترتب عن ذلك من فوارق في مستوى الدخل، ولا يمكن أن تكون أي مجموعة بشرية طبقة اجتماعية إلا إذا حافظ أفرادها على تماسكهم وكانوا على درجة من الوعي الاجتماعي الذي يتجسد من خلال الانتفاضات والإضرابات والمظاهرات والأحزاب والتنظيمات السياسية والنقابية.

إن النظرية التي صاغها ماركس وأتقنها إنجلز طبقها العديد من المفكرين تلاميذ ماركس مثل كاوتسكي Kautsky (1854– 1938م) في ألمانيا ولوريا لابريولا Loria Labriola (1843– 1904م) في إيطاليا وبروك آدامز (؟) Brook Adams

في الولايات المتحدة الأمريكية، لكن صدرت العديد من ردود الأفعال على هذه المدرسة في فترة الحرب العالمية الأولى فدعا بعض الماركسيين إلى إعطاء العامل النفسي مكانة، وتفسير التاريخ على هذا الأساس وفق النهج الذي سلكه فلاديمير لينين Vladimir Ilitch Lénine (1870- 1924م)، ومن المآخذ التي سجلها منتقدو هذه المدرسة نجد منطقة الحتمية التي تنعدم فيها حرية الإرادة الإنسانية وضعف إرادة الأفراد أمام القوى الاقتصادية، كما أن النظرة الأحادية للتاريخ أغفلت الصفة الفردية للحدث التاريخي وجعلت كل العوامل مرتبطة بل خاضعة للعامل الاقتصادي الذي يحرك الأحداث، ومن مثالب هذه المدرسة أيضا تحييدها للجانب الديني باعتباره أساسا لتنظيم العلاقات في المجتمع، ورغم الجهود التي بذلها أقطاب هذه المدرسة ومنظروها إلا أن طروحاتها المتطرفة جعلت الكثير من المؤرخين ينتقدونها كلما وجدوا فرصة لذلك.

د. مدرسة الحوليات:

ظهرت كرد فعل على المدرسة الوضعية بالتفاف مجموعة من المؤرخين منذ 1929م حول مجلة حوليات التاريخ الاقتصادي والاجتماعي ونذكر من أولئك مارك بلوك M. Bloch (1886- 1944م) ولوسيان فيفر L. Febvre (1878- 1956م) وفرناند بروديل F. Braudel (1902- 1972م) وغيرهم، وقد أعاب هؤلاء على المدرسة الوضعية وسجلوا جملة من المآخذ منها إهمالها للوثائق غير المكتوبة

وتركيزها على الأحداث السياسية والعسكرية، وإستبعاد الجوانب الاقتصادية والاجتماعية والثقافية من العمل التاريخي، وخروجها عن مبادئ البحث العلمي الموضوعي وانحيازها للتوجهات الإيديولوجية المتطرفة.

اهتمت مدرسة الحوليات بالتاريخ الاقتصادي والاجتماعي والثقافي، وسعت إلى التقريب بين التاريخ وسائر العلوم الإنسانية والاجتماعية الأخرى، وهي بذلك ترفض هيمنة العوامل السياسية، ومع مطلع سبعينيات القرن 20م انبثقت عن مدرسة الحوليات مدرسة التاريخ الجديد التي أولت اهتماما بكل المجالات، ودعا إلى ذلك مؤرخون من أمثال جورج دوبي George Duby (1919- 1996م) وإيمانويل لوروي لادوري Emanuel Le Roy Ladurie (1929- 2023م) وجاك لوقوف Jaques Le Goff (1924- 2014م) وغيرهم، وأتاحت هذه المدرسة مجلة الحوليات لغير المؤرخين في إطار تداخل العلوم والاختصاصات، مع احتفاظ التاريخ بالنصيب الأوفر من الاهتمام.

هـ. المدرسة البنيوية:

ظهرت كمشروع نقدي مع مطلع خمسينيات القرن 20م وبداية التقارب بين التاريخ الأنثروبولوجيا (علم الإنسان)، ومن أبرز منظري هذا الاتجاه الفرنسي ليفي ستراوس L. Strauss (1908– 2009م) الذي أكد على ضرورة معرفة التطور التاريخي للحياة الاجتماعية الحالية، ثم تبلور أكثر مع الفيلسوف الفرنسي ميشال فوكو (1926– 1984م) Paul-Michel Foucault في كتابه: أركيولوجية المعرفة ليفرز التاريخ البنيوي وأن التاريخ ليس بذاكرة البشرية بقدر ماهو مادية وثائقية ومجموعة أنساق فكرية واجتماعية ومناخية.

لم يرفض ستراوس التاريخ بل النظرة الأحادية التطورية للتاريخ، أي من منظور واحد ويرى أنه من أجل الوصول إلى حقائق ثابتة وموثوق بها في دراسة الثقافات والحضارات لا يجب الاعتماد على المنهج التاريخي وحده كونه منهج قاصر وغير صالح لسبر عمق الحضارات وتفسير السلوكيات والمعيشة وتقبل ما يبدو غير معقول في الرموز والأساطير واللغة وشتى تعابير الحياة اليومية لدى الجماعات والشعوبن وهنا يضع ستراوس الإثنولوجيا كأولوية وحقل وعلم مساعد ومنهجها البنية كإطار موضوعي وزمني يتسم بالثبات والاستمرارية والديمومة وفق نسق حاكم للعلاقات القائمة بين عناصر هذه البنية.

لكن جهود هذه المدرسة تقلصت بظهور جهود مناوئيها منذ ستينيات القرن 20م الداعين إلى حرية التفسير والتأويل التاريخي، ويمكن القول أن طرق تفسير التاريخ

والبحث فيه تطورت باتساع مجالات البحث التاريخي وغزارة الدراسات التي أعطت للتاريخ مفهوما أوسع وأدوات بحث أكثر تطورا وشمولية خلال مراحل لاحقة.